تقرير برودي والطريق إلى خورخي لويس بورخس

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

عرفت المكتبة العربية في السنوات الأخيرة هجمة على أدب أميركا اللاتينية. وقد كبرت هذه الهجمة بعد فوز غابريال غارسيا ماركيز بجائزة نوبل للآداب. ومن الواضح جداً أن هذه الهجمة هي انعكاس لاهتمام عالمي بهذا الأدب الذي قدم البديل ـ وخاصة في الرواية والقصة القصيرة ـ عن خواء الأدب الأوروبي في هذه المرحلة وغياب الأعمال الكبيرة فيه.

إن استورياس الغواتيمالي وماركيز الكولوجي وكورتاثار الأرجنتيني وماريو فارغاس إيوسا البيروي وغيرهم هم اليوم نجوم كبيرة في سماء الرواية في العالم. بين هؤلاء الأفذاذ يقف خورخي لويس بورخس الكاتب الأرجنتيني البارز حالة متميزة ووحيدة. ففي الوقت الذي تعاني القصة القصيرة في أوروبا، وبشكل خاص في فرنسا، من النضوب وفقدان النماذج المتميزة التي تعيد للدارس والقارىء ثقتهما بهذا الفن، نجد أعمال بورخس تفعل هذا وتقدم البديل المفقود.

بورخس كاتب قصة قصيرة، معه احتفظ هذا الفن بوهجه وقوته، فهذا الكاتب لم يقترب من الرواية ولم يقده إغراؤها وظل كاتب قصة قصيرة وشاعراً فقط. وعلى الرغم من ظهور ترجمات عديدة لقصصه موزعة على الصحف والدوريات العربية إلا أن مشروع ترجمة كتاب مستقل له لم تقم به إلا الشاعرة اللبنانية نهاد الحايك، حيث أقدمت على ترجمة واحدة من أهم مجموعاته القصصية وهي **تقرير برودي**. وهنا لا بد أن نشير إلى أن الأديب المغربي إبراهيم الخطيب قد قام هو الآخر بترجمة مختارات من قصص بورخس، ركز فيها بشكل أساسي على القصص المتأثرة بمناخات القصص العربية القديمة، ونشرها في كتاب يحمل إسم **مرايا ومتاهات** (دار توبقال ـ المغرب).

هذان هما الكتابان الوحيدان اللذان صدرا لبورخس بالعربية لحد الآن، أما شعره فهو الأقل حظاً في الترجمة. وكان للشاعرة اللبنانية نهاد الحايك أيضاً الجهد الأكبر في هذا المجال حيث ترجمت له ـ لحد الآن ـ أكثر من ثلاثين قصيدة جديدة هي جزء من مشروع تعمل عليه لنشر هذه القصائد في كتاب مستقل ـ كما ذكرت ذلك في أكثر من حوار نشر معها أواخر العام الماضي وأوائل هذا العام ـ هذه القصائد المترجمة قرأنا البعض منها في مجلات وصحف عربية وعراقية مثل **آفاق عربية** (العراق) **والدستور** (لندن) **والجمهورية** (العراق) لكننا كقراءعرب كنا أكثر إعجاباً بقصص بورخس، إذ أن قصائده عسيرة ـ مليئة بالرموز والأسماء ـ وهو يفعل الشيء نفسه في قصصه إلا أن طبيعة الفن القصصي تجعله أكثر قرباً للفهم من الشعر. ولذا فإن الإقبال على قراءة قصص بورخس أكبر من الاقبال على قراءة قصائده ـ وأنا أشير للحالة عربياً فقط ـ رغم أن بورخس الشاعر يكمل بورخس القاص، وأن تجزيء أعماله وقراءة كل منها على انفراد لا يعطينا الصورة الكاملة عنه.

- ٢ -

تضم مجموعة **تقرير برودي** عشر قصص قصيرة مع مقدمة وخاتمة. وعلى الرغم من تأثر بورخس المباشر بالحكايات العربية ـ خاصة **ألف ليلة وليلة** ـ وإقدامه على كتابة دراسة مهمة عن هذا الأثر الأدبي العربي الفذ فإنه يمضي بعيداً في هذا المجال ويكتب قصصاً أبطالها شخصيات عربية تراثية مثل ابن رشد. في **تقرير برودي** لا يفعل بورخس هذا، لكن تأثره بأسلوب **ألف ليلة وليلة** واضح جداً. وهذا الرجل يحاول أن يكون متواضعاً جداً فهو يذكر في تقديمه لهذه المجموعة ما نصه: «حاولت ولست أدري مدى نجاحي كتابة حكاياتي بأبسط الطرق».

إن روح **ألف ليلة وليلة** حاضرة في هذه القصص ـ الحكايات بشكل يمكن التعرف إليه بسهولة. إن بورخس عندما يكتب القصة

(*) **تقرير برودي قصص** لخورخي لويس بورخس ـ ترجمة نهاد الحايك ـ منشورات دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٩٨٨ ـ سلسلة المائة كتاب.

يفعل ذلك وكأنه يرويها شفاهياً، وهو يصر على ذكر أسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ ببساطة خداعة. فهذا الرجل ماكر لعين، بساطته فخ كبير، قد يوقع قارئه فيه ولا يجعله يخرج سالماً.

بورخس قارىء نهم، في رأسه حصيلة كبيرة من الأحداث والثقافات، لذا فإن كل ما عرفه وقرأه وتوصل إليه موجود في قصصه لكنه ليس ظاهراً للعيان بل علينا أن نبحث عنه طويلاً وننقب في الأعماق ونتأمل لتصل إليه. وقد يخرج الكثيرون بعد قراءتهم لبورخس وهم يهزون أيديهم سخرية وكأن لسان حالهم يقول: هذا كاتب محتال، أوهمنا أنه سيقدم لنا شيئاً لكنه في الحقيقة لم يقدم أي شيء إطلاقاً. وقد يخرج آخرون بعد قراءتهم له وهم مبهورون، دائخون من تفاصيل تلك العوالم التي أخذهم إليها وزرعهم فيها.

إن قصص بورخس لا تخلق قارئاً حيادياً بل قارئاً متطرفاً فأنت إما معه أو رافض له. وبالنسبة لكاتب القصة قد ينبهر به ـ وهذا ما حصل لي ـ ولكنني لم أفكر إطلاقاً في أن أكون قريباً منه في واحدة من قصصي التي سأكتبها يوماً.

قصة «الدخيلة» مثلاً ذات خاتمة جارحة، فهذان الأخوان ضحيا بالمرأة التي أحباها، قتلها أحدهما من أجل أن يحتفظ بعلاقة الأخوّة التي تربطه بأخيه. لكن سحر هذه المرأة ظل فيهما وصار حبها جامعاً لهما لا بل أقوى من علاقة الأخوّة.

وفي قصة «اللقاء» يوصلنا بورخس إلى حقيقة تتمثل في كون السلاح أبقى من البشر، وأن «مانيكو أوريارت» لم يقتل «دونكان» كما حصل في القصة، إذ أن الصراع كان بين السلاح وليس بين الرجلين. وإذا كان الرجلان قد انتهى أحدهما وسينتهي الآخر يوماً فإن أمام سلاحيهما لقاء آخر وإنهما لا بد وأن يتواجها يوماً وكل منهما بيد رجل آخر، أي أن الرجلين لم يكونا إلا وسيلتين للسلاح فقط.

أما قصة «المبارزة الأخرى» فهي مثيرة لحد البشاعة حيث يتحدّى رجلان أحدهما الآخر قابلين بقطع عنقيهما. كانا أسيرين وكان على القائد الذي أسرهما أن يصفيهما، وكان هذا القائد يعرف أنهما يعاديان بعضهما، لذا وضعهما أمام هذه المبارزة القبيحة، قال لهما: «أنا أعرف أنكما تتباغضان وتبحثان من زمان طويل عن مبارزة، لدي نبأ سار أزفّه إليكما، قبل المغيب ستظهران أياً منكما هو الأقوى، ستنحران واقفين ثم تتسابقان وسنرى من منكما يكون الرابح».

ـ ٣ ـ

لقد أوردت نماذج من قصص المجموعة هذه، وكما رأينا فإن كل قصة من هذه القصص فيها دم وقتل. وبالإمكان ملاحقة هذه المسألة في قصص أخرى لنجد بورخس موسوماً بها، نتيجة لتشبعه بروح أميركا اللاتينية وما في تاريخ بلدانها وشعوبها من مجازر ودماء.

إن بورخس رغم ثقافته الموسوعية التي تنعكس في قصصه وفي أشعاره بشكل خاص تمر ثقافته هذه بمذراة جذوره الأولى، حيث ولادته في بلد فائر عامر بالأحداث كالأرجنتين، وحيث انعكاس ما يحصل في أميركا اللاتينية من مظالم وبشاعات وانقلابات وعساكر وديكتاتوريات، بحيث تجد كل هذه الأمور طريقها إلى المواطن لتصبه في قالبها، ولم يفلت من هذا الطوق حتى بورخس نفسه.

وعلى الرغم من أن بورخس قد غادر بلده ليقيم في فرنسا وليموت في سويسرا إلا أن إصابته بالعمى وفقدانه لبصره قد قوّى من بصيرته وقوّى من ذاكرته وظل مغروساً في ماضيه منقباً فيه رغم أنه متواجد في حاضر آخر.

ـ ٤ ـ

إن بورخس ـ ولحد الآن ـ لم يقرأ جيداً في أدبنا العربي، وأكاد أجزم بأنه سيقرأ أكثر مستقبلاً فهو ليس كاتباً عابراً ولكنه معلم كبير.

لقد تسنى لي أن أقرأ أجوبة وشهادات عدد من كبار أدباء أميركا اللاتينية فوجدت بورخس أمامهم، يسيّرهم بإشاراته ويرسم لهم طريق تحركهم وكلهم يذكرون فيه المعلم بدءاً من ماركيز وانتهاء بماريو فارغاس إيوسا والآخرين.

وبالنسبة لنا ككتاب عرب نجد في بورخس معلماً لنا أيضاً، تماماً كما كان تراثنا مصدراً وملهماً له في كتاباته القصصية، كأن قصصه ترشدنا إلى كيفية التعامل مع التراث وكيفية إعادة صياغته في أعمال معاصرة، خاصة وأن هناك دعوة منذ سنوات للبحث عن شكل مميز للقصة العربية لتحقيق ما يماثل إنجازات قصاصي أميركا اللاتينية كتجربة ماركيز في **مائة عام من العزلة** و **خريف البطريرك** مثلاً.

إن هناك عشرات الروائيين الكبار الذين ظهروا في العالم وقرأهم الناس لكن المعلمين بينهم قلائل. إن هرمان ملفيل وأرنست همنغواي ووليام فولكنر وديكنز وستاندال وفلوبير وديستويفسكي وتشيخوف وتولستوي وألبير كامو ولورنس داريل وناتالي ساروت وآلان روب غرييه وأسماء أخرى هم معلمون، نتعلم منهم عندما نقرأ لهم، رغم أنهم يختلفون عن بعضهم، ولكل منهم أفقه واجتهاده، وبين هؤلاء ومعهم يقف بورخس.

إن من حسن حظ مجموعة **تقرير برودي** أن مترجمتها شاعرة، لغتها عالية وصافية. تعرفها تماماً كما تعرف اللغة الفرنسية التي تترجم عنها، لذا جاءت الترجمة متميزة بين التراجم العديدة التي ظهرت لقصص بورخس ووقع أغلبها في مطب الركاكة اللغوية وضعف الصياغات.

إن الترجمة ليست نقلاً حرفياً بل هي إعادة كتابة للنص المترجم وصياغة أخرى باللغة التي يُترجم إليها. وقد استطاعت نهاد الحايك أن تجد لها مكاناً في هذا العالم الصعب الذي يغص بالأسماء، عالم الترجمة، وقد قدمت لنا بورخس بشكل جعله قريباً منّا أكثر، الأمر الذي لم يفعله أو يقدر عليه مترجمون آخرون.